من مشكلاتنا الاجتماعية :

الهجرة من القرية إلى المدينة

للأستاذ يحيى هويدى

لا بد أن يكون قد استرعى انتباهنا جميعا هؤلاء القرويون الذين امتلأت بهم شوارع العاصمة ، وازدحمت بهم أحياؤها . ولا بد للتأمل أن يكون قد لاحظ : فضلا عن هذا ، أن هجرة هؤلاء القرويين من القرية إلى المدينة أصبحت فى ازدياد مضطرد ، ازدياد لا يسع الباحث فى الشؤون الاجتماعية معه إلا أن يعيره التفاته ، ويستقصى أسبابه ، وينقب عن نتائجه ويقدم طرق علاجه .

وأحب أن أشير فى أول مقالى إلى أن هـذه الظاهرة ، ظاهرة الهجرة من القرية إلى المدينـة Urban migration ، ظاهرة عامة : ليست قاصرة على مصر وحدها ، بل وليست قاصرة على العصور الحديثة فحسب . فإن هجرة الشعوب من القرية إلى المدينة بدأت منـذ بدء الحضارات . ذلك أننا نعلم أن الحضارات قد نشأت ، أول ما نشأت ، على ضفاف الأنهار القديمة كالنيل والدجلة والفرات وأنهار الصين والهند . وأقبل الناس على هـذه البقاع الخصبة يلتمسون فيها قوتهم وأمنهم . ولكن لم تنشأ مدن بمعنى الكلمة فى هـذه المناطق الزراعية . فاحتفظت بطابعها القروى حتى عصورنا الحديثة . أما المدن فى العصور القديمة فلم تنشأ إلا من أجل مركزها الحربى أو الدينى فحسب : مركزها الحربى لأن موقعها كان أكثر حصانة من غيرها مما جعل أفراد القرى المحيطة يلجأون إليها فى حالة إغارة الأعداء عليهم ، ومركزها الدينى لأن قدماء اليونان مثلا كان من عادتهم أن يحتفظوا برئيسهم الدينى فى مكان حصين هو المدينة ، لإبعاده عن كل مكروه ولحمايته من كل خطر . وكان قدماء اليونان يحجون إلى هـذه المدينة فى مواسم الحج ليحيوا فيها رئيسهم الدينى وليقيموا فيها المراسيم والحفلات .

يتضح من هذا أن القرويين ، منذ بدء الحضارة ، كانوا يلجأون إلى المدن إما لحمايتهم من الأعداء نظرا لموقعها الحصين وإما لإحياء المشاعر الدينية . أعنى أنه ، حتى فى تلك العصور الغابرة ، كانت هناك هجرة من القرية إلى المدينة . ولكن من اليسير أن نلاحظ أن هذه الهجرة لم تكن هجرة بمعنى الكلمة : فقد نشأت تحت تأثير ضرورة حربية أو دينية دون أن يكون المهاجر فيها مدفوعا اليها من تلقاء نفسه ، ومن ناحية أخرى فقد كانت هجرة موقوتة وليست بمستديمة . أعنى أن القرويين الذين كانوا يتزحون إلى المدينة فى تلك العصور سرعان ما كانوا يرتدون إلى قراهم بمجرد انتهاء إغارة العدو ، أو انقضاض الموسم الدينى . وما كان لهؤلاء القرويين أن يستمروا فى المدينـــة وهم يعلمون أن مورد غذائهم الوحيد لا يوجد إلا فى القرية ، عن طريق الزراعة . وذلك مصداقا لما قلناه قبل ذلك من أن الحضارات كانت فى نشأتها زراعية ، ووجدت أول ما وجدت ، على ضفاف الأنهار .

أما الهجرة من القرية إلى المدينة فى العصور الحديثة فمختلفة عنها فى العصور القديمة من ناحيتين : الأولى أن هجرة القرويين فى العصور الحديثة إلى المدينة هجرة مستديمة وليست موقوتة بإغارة عدو أو بحج دينى والثانية أن الدوافع إلى هذه الهجرة فى العصور الحديثة تختلف تمام الاختلاف عن الدوافع اليها فى العصور القديمة ويدور أغلبها حول الدافع الاقتصادى كما سنبين ذلك الآن .

أسباب هذه الهجرة :

١ — النمو الاقتصادى : ويشمل النمو الصناعى والتجارى . قلنا إن نشأة المدينة فى العصور القديمة لم تكن إلا لضرورة حربية أو دينية . وإن هجرة القرويين اليها كانت تبعا لذلك موقوتة . أما نشأة المدينة فى العصور الحديثة فيرجع إلى نموها الصناعى أو التجارى أو كليهما معا . وكان من أثر هذا النمو الاقتصادى بنوعيه أن شرع أصحاب الأموال فى بناء المصانع والشركات ، الأمر الذى تطلب بدوره الأيدى العاملة . فتهافت القرويون على المصانع والشركات ، وهجروا القرية إلى المدينة . وقد استهواهم ارتفاع الأجور التى كانوا يتقاضونها فى المصانع ، واعلمهم أيضا بأن الصناعة مستمرة على جميع فصول السنة ، وهذا لا يتأتى بالنسبة الى الزراعة . وقد ارتبط التقدم الصناعى فى المدينة بالنمو التجارى منذ البدء . وذلك لأن المصانع تنتج البضائع . واذا ما وجدت البضائع كان لا بد من قيام الأسواق لتصريفها . وهذا مما ضاعف حاجة أصحاب العمل الى الأيدى العاملة وزاد بالتالى فى أجورهم مما أدى بدوره إلى هجرة عدد أكبر من القرويين إلى المدينة .

٢ — تغير طرق الزراعة : قلنا إن احتياج المدينة للأيدى العاملة قد ازداد بنمو التجارة والصناعة فيها . وعلى العكس من ذلك قلت حاجة القرية الى الأيدى العاملة . فاختراع الآلات الحديثة فى الزراعة قد مكن العامل الواحد من القيام بالعمل الذى كان يقوم به فيما مضى خمسة أو عشرة عمال . وهذا أدى بالكثير من العمال الزراعيين الى التفكير فى الهجرة من القرية الى المدينة ، ما دام لم يعد هناك محل لاقامتهم .

٣ — إغراء المدينة : وإقفار القرية من الأيدى العاملة لا يرجع الى تلك الأسباب الاقتصادية فحسب ، بل يرجع أيضا الى أسباب اجتماعية سيكلوجية أهم من السابقة . فسرعان ما يمل الشاب القروى الحياة الجامدة الرتيبة التى يحياها فى القرية ، ويضيق بها ، ويتطلع الى المدينة بأنوارها الوضاءة ، وبوجوهها المليحة ، وبدور ملاهيها التى تغص بها شوارعها . إذن فليقدم على هذه التجربة الجديدة ، وليتنقل الى المدينة : وهو على ثقة من أنه سيستمرئ الحياة هناك وسيجد فيها لذة لا تعد لها لذة .

تلك هى الأسباب العامة لهجرة القرويين إلى المدينة فى العصور الحديثة ، لنبحث بعد ذلك فى مدى تمشى هذه الدوافع العامة مع حالتنا فى مصر ، وهل تصدق على هجرة القرويين المصريين من القرى فى الوجهين البحرى والقبلى إلى القاهرة والاسكندرية والمحلة الكبرى مثلا أم لا .

١ — ليس من شك فى أن هذه المدن قد شاهدت نهضة صناعية لم تكن فيها من قبل . لا سواء أنها نهضة متواضعة ، ولكنها نهضة على كل حال أوجدت ميدانا للعمل الكثير من الأيدى المصرية وشجعت على الهجرة من القرية إلى المدينة ، ولكننا نلاحظ من ناحية أخرى أن أجور العمل فى المصانع التى نشأت فى هذه المدن المصرية ليست بمغرية على الإطلاق ، بل هى كافية فحسب لإقامة الأود ، وإذا كان القروى يسلم هذا مقدما قبل هجرته إلى المدينة ويهاجر على الرغم من ذلك ، فان هذا يدعونا إلى التفكير فى سبب آخر دفع بهؤلاء القرويين إلى الهجرة إلى المدينة للعمل بها ، وفضلا عن هذا فقد ذكرنا سالفا عند الحديث عن الأسباب العامة للهجرة من القرية إلى المدينة ما شاهده القرويون فى البلاد الأخرى من أن الصناعة تمتاز عن الزراعة بأنها مستديمة على جميع فصول السنة ، وهذا مما شجعهم على الهجرة إلى المدينة فضلا عن إغراء أجور العمل هناك ، ولكن هذا ليس موجودا بالنسبة إلى القطر المصرى ، فالزراعة فى بلادنا كالصناعة تماما زراعة دائمة فى الوجه البحرى على الأقل ، وعلى ذلك فنرفض هذا السبب الأول من الأسباب الدافعة لهجرة القرويين إلى المدينة باعتباره غير صالح لتفسير هجرة القرويين المصريين إلى المدينة .

٢ — ذكرنا فى الحديث عن الأسباب العامة للهجرة من القرية إلى المدينة شدة الحاجة إلى الأيدى العاملة فى المدن ، نظرا لنموها الصناعى والتجارى ، مع قلتها فى الريف ، نظرا لتغير طرق الزراعة هناك ، ولأن ما يقوم به العامل فى القرية الآن بمساعدة الآلات الزراعية الحديثة ، كان يقوم به خمسة أو عشرة عمال فيما مضى . فهل شاهدت مصر هذا التغيير ؟ كلا فان الآلات التى تستخدم فى الزراعة الآن هى نفس الآلات التى كان يستخدمها قدماء المصريين ، ومن أجل هذا ظلت القرية فى حاجة إلى نفس العدد من الأيدى العاملة الذى كانت تحتاج اليه فيما مضى ، وإذا عرفنا أن كثيرا من القرويين المصريين قد هجر القرية إلى المدينة فلا بد أن تكون النتيجة الطبيعية لهذا هى النقص الظاهر فى الأيدى العاملة فى القرية ، وهذا طبيعى لأن نزوح هؤلاء القرويين إلى المدينة لم يتبع بتغيير من الآلات الزراعية ، لأمر الذى يخفف من شدة احتياج الزراعة إلى الأيدى العاملة ، وهذا يفسر لنا — إلى حد كبير — ذلك النقص فى الأيدى العاملة الذى يشكو منه أصحاب الأراضى من الشكوى ، وليس من شك فى أنه قد صاحب هذا النقص فى الأيدى الزراعية زيادة غير محتملة فى أجورهم مما ضاعف شكوى الملاك الزراعيين .

ليس هذا السبب أيضا بالسبب الصحيح الذى يفسر لنا هجرة القرويين المصريين إلى المدينة . فإذا كان تغيير الأساليب الزراعية فى البلاد الأخرى قد أدى إلى توفير عدد كبير من العمال الزراعيين مما حملهم على الهجرة من القرية إلى المدينة ، فان شيئاً من هذا لم يحدث بالنسبة إلى القطر المصرى الذى لم يشاهد هذا التغيير فى الأساليب الزراعية .

٣ — انتهينا من هذا إلى أنه لا السبب الأول ولا السبب الثانى من الأسباب الدافعة إلى الهجرة من القرية إلى المدينة بالأسباب الصحيحة التى تفسر لنا هذه الهجرة فى القطر المصرى . فقد رأينا من ناحية أن أجور العمال هنا ليست بمعزية كما هى الحال فى البلاد الأخرى ، ومن ناحية أخرى رأينا أنه لم يحدث تغيير فى الآلات الزراعية مما لم يؤد إلى الاستغناء عن عدد من الأيدى الزراعية فى القرية . ومع كل هذا فنحن نشاهد هذه الهجرة من القرية إلى المدينة تزداد وتطرد ولدينا مما لا يترك مجالا للشك فى وجودها . إذن لنبحث عن الدافع الحقيق لها فى السبب الثالث الذى أتينا به ، وهو السبب السكيلوجى فالمدينة قد سمومت القروى المصرى فى العصر الحديث ، ورأى أن حياته فى المدينة ستكون أرغد من حياته فى القرية ، فهاجر إلى المدينة . والحق أن القروى المصرى فى هذا معذور كل العذر . فما الذى عساه أن يجده هذا القروى فى القرية المصرية ؟ ! دار شاركه فيها الحيوان حتى اختلطت حياته بحياته ، لا يجد فيها ما يأنس إليه ، لم يراع فى بنائها أية قاعدة من القواعد الصحية . ثم من ورائه قرية لا يعرف أين يمضى وقت فراغه فيها ، ولا يعرف أين يعالج نفسه بها إذا ألم به أو بزوجه أو بأولاده المرض ، ولا يعرف أين يعلم أولاده فيها إذا ما كبروا .

فلهذا السبب وحده : استهواء المدينة من ناحية ، وعدم وجود أى مشجع للبقاء فى القرية من ناحية أخرى ، ترجع هجرة القرويين المصريين إلى المدينة فى العصر الحديث .

نتائج هذه الهجرة :

ترتب على الهجرة من القرية الى المدينة فى مصر نتائج عدة نستطيع أن نقسمها إلى قسمين : نتائج فى القرية المهاجر منها ، ونتائج أخرى فى المدينة المهاجر إليها .

أما نتائج هذه الهجرة فى القرية فقد أشرنا اليها قبل ذلك وأهمها : نقص الأيدى الزراعية فى القرية ، وارتفاع أجور العمال الزراعيين إرتفاعا ظاهرا يجعل أصحاب الأراضى تحت رحمة هؤلاء العمال . وهذا شئ له خطره .

أما نتائج هذه الهجرة فى المدينة ، فقد ترتب على الهجرة أن إزدحمت المدن الكبيرة — وخاصة القاهرة والاسكندرية — بالسكان إزدحاما نشاهد أثره كلنا الآن وترتب على هذا الازدحام قيام عدة مشاكل أهمها : إنتشار الأمراض المعدية خصوصا فى الأحياء البلدية

التى يقصد إليها المهاجرون غالبا . ثم كانت النتيجة لهذا الازدحام أيضا أن تعقدت مشكلة المواصلات تعقيدا ضقنا به ذرعا ، وتلمسنا الحلول له دون جدوى . واتسعت تبعا لذلك أعمال مصلحة التنظيم والمجالس البلدية فى كنس الشوارع ورشها ... الخ . ثم إن للمدينة مشكلتها العلمية أو الثقافية أيضا . ولكن المشكلة هنا ناشئة — على عكس ما نجده فى القرية — من كثرة إقبال الأطفال على التعليم خصوصا فى مرحلته الأولى لا من قلته كما هى الحال فى القرية . وتنتج أيضا عن إقبال المدنيين على وسائل التسلية من دور المسارح والسينما كل ليلة أن أصبح من الضرورى إقامة هذه الأماكن فى بقاع صحية بحيث تتسع لعدد كبير . إلى غير ذلك من المشاكل التى ذكرنا بعضها على سبيل المثال لا الحصر .

طرق الإصلاح :

نحن إذن أمام مشكلة من أعقد مشكلاتنا الاجتماعية وهى مشكلة الهجرة من القرية الى المدينة . فلو أن هذه الهجرة استمرت على ما هى عليه الآن من اضطراد مخيف ، فسنواجه جميع المشاكل التى ذكرت بعضا منها الآن ، والتى تستحق كل منها إفراد بحث خاص بها مما يدل على خطورتها وحيويتها . وقد رأينا أن الدافع الحقيقى لهذه الهجرة هو افتقار القرية إلى ما يشجع على الاقامة فيها . فليس أمام الحكومة والحال هذه إلا طريق واحدة لحل هذه المشكلة بفروعها المتعددة . وهذه الطريقة ليست بجديدة على مسامع القراء بل إن المصلحين قد نادوا بها آلاف المرات ، وأعنى بها : عدم ادخار أى وسع فى النهوض بالقرية المصرية نهضة لا يفكر القروى إزاءها فى مغادرتها الى المدينة . فتوجه العناية إلى مسكن الفلاح وغذائه وتنشأ المستشفيات لعلاجه ، وتصلح المدارس الريفية إصلاحا يحقق الغرض منها ، وتزود القرى بالمراكز الاجتماعية والزراعية التى ثبت نجاحها . ويجب ألا يغفل القائمون بالاصلاح أيضا إيجاد الوسائل لتحقيق التسلية البريئة المفيدة فى القرية ليعرف القروى كيف يمضى وقت فراغه .

واذا كانت الحكومة قد أخذت فى تنفيذ هذا المشروع فى بعض القرى ، فما زلنا نطلب منها المزيد ، وما زال المشروع فى حاجة الى تعميم فى جميع أنحاء القطر . ففى تعميمه حل لمشكلات اجتماعية كثيرة ، من أهمها مشكلة الهجرة من القرية الى المدينة .

يحيى هويدى
المدرس بالمدارس الثانوية